

شرح كتاب العظمة المجموعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. من آيات الله تعالى.. مخلوقاته. في "ثلاثة الأصول" يقول الشيخ ابن عبد الوهاب رحمه الله: إذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: عرفته بآياته ومخلوقاته. وأعظم مخلوقاته: الليل والنهار، والشمس والقمر. وأكبر مخلوقاته: السماوات والأرض. وكلها آيات، وكلها مخلوقات، فالشمس والقمر آيات ومخلوقات، والليل والنهار آيات ومخلوقات، والسماوات والأرض، والنجوم والرياح، ونحوها آيات ومخلوقات، والتفكر فيها دليل على عظمة مَنْ خلقها وأوجدها، فإن الخلق لا يستطيعون أن يخلقوا مثلها، لو اجتمعوا على أن يخلقوا مثل هذه الشمس التي تضيء على ما أشرقت عليه مع بُعْدِهَا، والتي تسير هذا السير الحثيث السريع؛ بحيث تقطع هذه المسافات كلها في أربع وعشرين ساعة، لرأوا عجايباً. وكذلك هذه النجوم من آيات الله التي احتج بها على عظمتها، يقول الله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } وقال قتادة بن دعامة -رحمه الله- خلق الله هذه النجوم لثلاثة: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك خطأ، وأضاع نصيبه من الدنيا، وتكلف ما لا علم له به. فإله تعالى أخبر بالحكمة في خلقها زينة للسماء، قال الله تعالى: { وَلَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِصَابِيحًا } أي: بهذه النجوم، فإنها كالمصابيح، أي كالسرج، إذا كانت ليلة ظلماء في بركة وهي صحو، رأيت هذه النجوم تضيء في السماء، ورأيت كواكبها منيرة لما تحتها، فهي زينة. وكذلك جعلها الله رجوماً للشياطين الذين يسترقون السمع، فإن الشياطين تصعد إلى السماء لتخطف الكلام، وتستمع من الملائكة ما يتحدثون به مما يأمر الله به، فيرسل الله عليهم هذه الشهب فتحرقهم. قال الله تعالى: { إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ } أي: يخرقه وبثقبه، ويقول الله تعالى: { وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ } أي: هذه الكواكب. كذلك أخبر بأنه يهتدى بها، قال الله تعالى: { وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَايَسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ } يعني: هذه الجبال، ثم قال: { وَيَالْتَجُمُّ هُمْ يَهْتَدُونَ } أي: يهتدون بهذه النجوم. وقال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } أي: تعرفوا بها المقاصد والجهات التي تتوجهون إليها، ففيها هذه الحكمة. وأما الذين يجعلون طلوعها أو غروبها علامة على حدوث موت أو مطر أو غرق أو نحو ذلك، فإنهم يتخرصون، ويقولون ما لا يعلمون، فإن هذه النجوم مُسَخَّرَةٌ مُسَخَّرَةٌ، لا تملك شيئاً، وليست هي التي تنشئ السحب، ولا ترسل الرياح، بل الرب تعالى هو الذي يتصرف في ذلك، لا يملكه غيره. من آياته: هذه الرياح وهذه السحب، يقول تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ } هذه الهبوب التي يرسلها الله أحياناً عواصف، وأحياناً مبشرات تبشر بالخير بالمطر وبالغيث بشراً بين يدي رحمته { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } أي: تبشر بالخير لا يملكها إلا الله لو سكنت الرياح ثلاثة أيام، يقول بعض العلماء: لأن ما على وجه الأرض؛ ولو حاول الناس كلهم أن يرسلوها إذا سكنت لعجزوا عن ذلك. وهكذا.. لو أرسلها الله ريحاً عاصفاً لم يفقدوا على أن يوقفوها، فإنه تعالى يرسل رياحاً عاصفة قد تقلع الأشجار؛ ولو كانت كبيرة، وتهدم الدور والمساكن، وتهلك ما أتت عليه، كما أرسلها على عاد، قال تعالى: { إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ } أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً { فِي يَوْمٍ تَحْسَبُ النَّاسُ تَنْزِعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ } لم يستطيعوا أن يتخلفوا، ولم يستطيعوا أن يردوها، ولا أن يخلصوا منها، فيرسلها الله تعالى ريحاً عذاباً، أو رياحاً رحمة. ورد في بعض الأحاديث: { لا تسبوا الرياح، فإنها مُسَخَّرَةٌ } نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن سب الرياح؛ لأنها مذلة، وأمر إذا عصفت العواصف أن يقول: اللهم إنا نسألك من خير هذه الرياح، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، ونعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به. كذلك أيضاً نعرف عظمة الأفلاك العلوية، نعتقد أن ربنا سبحانه خلق سبع سماوات، بعضها فوق بعض، أخبر بذلك في كتابه، وأخبر به نبيه -صلى الله عليه وسلم- كما في قوله تعالى: { وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ سَبْعُ سَمَاوَاتٍ } وقال الله تعالى: { وَلَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِصَابِيحًا وَجَعَلْنَاهَا نُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ } أخبر بأنه جعل في السماء هذه الأفلاك. وكذلك قال نوح: { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا } هكذا أخبر بأنه خلق هذه السبع السماوات، وأنه جعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً. نعتقد بأن الشمس والقمر مخلوقان، وأنهما مسيران مسخران، سخرهما الله وذللهما، كما في قوله تعالى: { وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } فالشمس والقمر دائبان، يسيران سيرا حثيثاً، مركبان في أفلاك، وكذلك النجوم مركبة في أفلاك، تسير معلقة في أفلاكها، لا تخطف موضعها الذي ركبها الله وسيرها فيه. فهذا معتقد أهل السنة. في يوم القيامة أخبر بأن هذه الكواكب تسقط، قال تعالى: { وَإِذَا الْكُوكَبَاتُ انْتَثَرَتْ } أي: تساقطت، وأخبر بأن الشمس تُكْوَرُ: { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } أي طويت، فجعلت ككور العمامة، وذلك بانتهاء الزمان الذي قدر الله أنها تكون آية فيه. هذا معتقد أهل السنة؛ وذلك لأن هذه الدنيا جعلها الله على هذه الهيئة، فيها هذا الليل وهذا النهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والكواكب والأفلاك، وخلق على الأرض ما خلق من هذه المخلوقات، خلق الإنسان، وخلق الحيوانات، وخلق الأشجار، وكل ذلك جعله آية على عظمتها، يستدل بها العاقل على عظمة من أنشأ ذلك وخلقها، ويعرف أن الخالق لهذه المخلوقات هو المستحق للعبادة وحده، وأنه الخالق، وما سواه مخلوق. فيستدلون بعظمة المخلوق على عظمة الخالق، فعظمة هذه الأفلاك وما فيها من العجائب، لا شك أنها تدل على عظمة من أنشأها وسيرها. وأما في الآخرة، فإنها تنتهي، فينتهي ما خلقت له، ورد في الحديث الصحيح أنه: { إذا جمع الناس يوم القيامة، يقول الله تعالى: لتتبع كل أمة ما كنت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت } بمعنى: أنها تصور لهم الشمس؛ سواء كانت الشمس الحقيقية أو صورة لها، { فيقال: هذا معبودكم الذي كنتم تعبدون، فيتبعونه ويتساقطون في النار } الذين يعبدون الشمس والذين يعبدون القمر يتبعونه. وهذا معنى ما روي أن: { الشمس والقمر عقيران في النار } بمعنى: أنهما يصوران لأهل النار؛ ليكونا ذلك أشدَّ لعذابهم، فيقال: هذا إلهكم الذي كنتم تعبدونه، هل ينفعكم؟ وهل يغني عنكم؟ كما أنها تصور لهم أصنامهم التي كانوا يعبدونها، قال الله تعالى: { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ } فمعنى ذلك أن أصنامهم تصور لهم، فتكون معهم في النار، فهكذا هذه الشمس تصور لهم، سواء كانت الشمس الحقيقية، أو أنها صورة لها. وهكذا أيضاً قال الله تعالى: { أَحْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا } يعني: الكافرين والمشركين، { وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ } أحسروهم وآلهتهم وأبائهم وما كانوا يعبدون من دون الله { فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } . أخبر بأنهم جميعاً ومعبوداتهم تدخل في النار { أَحْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا } أي يوم القيامة وأبائهم وأصنامهم ومعبوداتهم واقدفوهم في النار، وانظروا هل تنفعهم هذه الآلهة؟!